صفات الادب

الفارسي الحديث

للدكتور عبد الوهاب عزام

[لا يصدر هذا العدد من المقتطف وتتداوله ايدي قرائه حتى يكون مشتركوه قد تلقوا هديتيه السنويتين واعظمها كتاب « في نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية » : ومن فصول هذا الكتاب بحث نفيس وسمه الدكتور عبد الوهاب عزام استاذ الادب الفارسي بكلية الاداب بجامعة فؤاد الاول موضوعه « الصلات بين العرب والفرس وآدابها في الجاهلية والاسلام » وقد اخترنا الصفحات التالية من ختام هذا البحث الممتع : المحرر]

*

(صفات الادب الفارسي الحديث) — بعد هذا يحق لنا ان نسأل ما صفات هذا الادب الفارسي الاسلامي شعره ونثره ؟ وما علاقته بالادب العربي؟

نشأ الادب الفارسي الحديث في رعاية الأدب العربي وتحت سلطانه وطبع على غراره في أكثر الاساليب والموضوعات :

أخذ الأدب الفارسي عن العربي معظم موضوعات الشعر والنثر وكل صور الشعر والنثر وأساليبها من الوزن والقافية والسجع وانواع البديع الخ . ثم امتاز الادب الفارسي بخصائصه في الاسهاب والقصص وغيرها . وقد اتصل الادبان اتصالاً وثيقاً . وترجم من الفارسية الى العربية شذرات ادبية كما ترجمت الكتب الفهلوية من قبل . نجد في ديوان المعاني لعسكري امثالاً معربة وجملاً من بلاغات العجم » . وفي اليتيمة امثال معربة كذلك . وفي كتب الادب اخبار عن المنشئين بالفتين والمترجمين شعراً فارسياً الى العربية كما يجيء الكلام عن ابن المقفع .

وأما الترجمة من العربية الى الفارسية فكانت أوسع وأنفع . وقد ذكرنا بعض المترجمين وما ترجموا من الكتب آنفاً

وكان كثير من المؤلفين والكتّاب والادباء والعلماء يكتبون بالفتين ومعنى هذا ان تكون الفتان اداتين للابانة عن افكار وأخيلة وصور متفقة . وفي هذا من التقريب بين الفتين ما فيه

وكانت اللغة العربية لغة العلم والادب في ايران منذ الفتح الاسلامي فلما ترعرعت الفارسية

وصارت لغة علم وادب استعان المنشئون في الادب الفارسي بالالفاظ والعبارات الاعجمية المأنوسة في العربية التي تعوّد الناس التعبير بها زمناً طويلاً

ونفصل هذا القول تفصيلاً قليلاً فيما يلي :

فأما الشعر فيشارك الشعر العربي في موضوعاته من هجاء ومدح وغزل وفخر ووصف — في ميل الى المبالغة والاطناب — ويمتاز بأشياء .

(١) ذكر ملوك الفرس القدماء وابطالهم مثل فريدون ، ورستم ، وزال ، وجمشيد ، وقد يرى هذا الى الشعر العربي الذي نظم في بلاد الفرس كشعر بديع الزمان وامثاله

(٢) ويمتاز الشعر الفارسي بميزتين عظيمتين : الشعر القصصي والشعر الصوفي

فأما الشعر القصصي فقد أولع الفرس به في كل عصر . وقد رأينا أن آذن بن عبدالحميد نظم كتاب كليلة ودمنة بالعربية ، وأن الرودكي اول شعراء الفرس الكبار نظم هذا ايضاً . ومن الادلة على ولع الفرس بالقصص قصة يوسف وزليخا . فهذه القصة مأخوذة من القرآن ، ولكن شعراء العربية لم يتناولوها . وأما الفرس فقد نظموها مراراً . نظمها من كبارهم الفردوسي وجامي . ونظمها آخرون — ورواية وامق وعذراء التي قيل انها قدمت لعبد الله بن طاهر فأمر بطرحها في الماء نظمها العنصري شاعر محمود الغزنوي ، ثم القصيحي في رواية كيكاوس الزياري ، ونظمها اربعة شعراء آخرون . وقصة ليلى والمجنون نظمها كذلك غير واحد من شعرائهم

وحسبنا شاهنامة الفردوسي التي حاكاها شعراء كثيرون فنظمت شاهنامات أخرى لم تنل ما نالته من القبول والصيت . ومن القصص المنظومة رواية خسرو وكل ، وبهرام ولعله لفريد الدين العطار وسلامان وأبسال لمولانا جامي ، وغيرها مما لا يتسع المقال لتعديده

وأما الشعر الصوفي فقد بدأه ابو سعيد بن ابي الخير من بلدة ميهنة في خراسان ، وأبو عبد الله الانصاري من هراة . فنظم فيه قطعاً ورباعيات ، ولكنه لم يكثر فيه التأليف الا بعد نصف قرن اذ نبغ طليعة فرسانه سنائي الغزنوي ثم فريد الدين العطار ثم فحول الصوفية على الاطلاق جلال الدين الرومي صاحب المثنوي الذي يسمى القرآن في اللغة الفارسية . ويقال لكل بيت من ابياته [illegible] وتوجد كتابات ومن بعد غارات التتار نبغ بسنان نظم [illegible] الرحمن الجامي الذي يعد آخر شعراء الفرس العظام

والحق ان اللغة الفارسية تفوق سائر لغات العالم بعدا تتميز من الشعر الصوفي الاسباني الفلسفي الذي يرتفع عن جدال المذاهب وعصبيات الآراء ويتغلغل الى بواطن الاشياء فيصف النفس الانسانية في اسمى منازعها ، ويرى الحقائق الالهية في اجلى مظاهرها

وأما الفاظ الشعر ففيها كثير من الالفاظ العربية ولكنها طابع عربي في تركيبها . ولكن اثر

العربية في الشعر أقل منه في النثر . وأما قوافيه وأوزانه فلا يمكن تفصيلها في هذا المقال . وحسبنا ان نقول أن الفرس يكثرون من الشعر المزدوج الذي يسمى المثنوي وهو شعر التقصص كما . وأكثروا كذلك من الدوبيت او الرباعي . وعندهم ما يسمونه ترکيب بند او ترجيع بند وهو قريب من الموشحات العربية — وعندهم الشعر المردف وهو الذي تكرر في آخر ابياته كلمة واحدة ويعتبر الروي والقافية ما قبل هذه الكلمة . وجملة القول انهم لم يسهلوا القوافي العربية وان اخترعوا ضروباً فيها

وأما الوزن فجدير بالتدقيق جداً . فان الفرس حاكوا العرب في اوزانهم وان الامر ليستهم سرطان ما تبذوا اشهر الاوزان العربية . فالطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل وهي أشهر الاوزان في الشعر العربي . لم ينظم فيها الفرس الا جاءا من المتقدمين او دون اظهار براعتهم كما يتول شمس قيس . ونظموا في الرمل والرجز والخفيف والمضارع والمجتث والمتقارب (وهو وزن المتطامسة) وأولعوا بالهزج ولعاً شديداً حتى حملوه اصلاً فرعوا منه الرباعي وخرجوا به عن اصله العربي

ويلاحظ انهم لم يقفوا بالبحور عند المقادير العربية . فالرمل قد يأتي ثمناً والرجز كذلك وما جاءا كذلك في شعر العرب قط والهزج — مثلاً — الذي هو سداسي الاصل عند العرب ومجزوء وجوباً ينظم منه الفرس ثمناً . ثم تصرف الفرس في الزحاف والعلل تصرفاً كثيراً جداً واشتقوا من الدوائر العربية بحوراً أخرى قريبة من البحور الاصلية مثل القريب والمشاكل والقريب

وقد اراد بعض المستشرقين ان يعلل الخلاف بين الاوزان العربية والفارسية بالفرق بين طبائع الامتين من اختلاف . ويقول شمس قيس ان سبب ثقل الطويل والمديد والبسيط ان أجزاءها غير متناسبة في حركاتها وسكناتها ويحيل في بيان ذلك . ولا يمكن القول في هذه المسألة الا بعد بحث مفصل في أوزان الشعر العربي وعلاقة الاوزان العربية بالاوزان الفارسية وبين الاوزان العربية في الشعر الفارسي وبين ما بين هذه البحور وبقية البحور من صلة

وينبغي ان يذكر هنا ان وزن الرباعي نقل الى العربية وانشئ العروضيون له اوزاناً بالهزج ثمانية ليس لها اوزان فارسية تطابقها العربية

وأما النثر الفارسي فأثر العربية فيه أبين . الالفاظ العربية فيه كثيرة والتراكيب العربية كثيرة . ويمكن الاشارة الى الفرق بين النثر الادبي — فن الرسائل والمقامات — وبين النثر في الكتب . فأما الاول فقريب من الشعر . وأما الكتب فقد اكثروا فيها كلها في كثير من الاحيان العربية بحيث يخيل ان يفرق فيها بين كتب التاريخ التي هي قصص يسهل فيها الكلام الفني . فأما بعض المؤلفات العلمية مثل كتب الفقه والتوحيد والفلاسفة والطب وهلم جرا فان العلم فيها يجيء بلغة

يكتب بألفاظ عربية ، وتستعار فيه كل الاصطلاحات العربية ، فاصطلاحات البلاغة وضروب البديع واصطلاحات العروض أخذت برمتها . وما زادوه فيها اشتقوه من العربية ايضاً . ثم المؤلفات كلها علمها وأدبها يتخللها كثير من المقتبسات العربية ، ففي كتب الدين الآيات والاحاديث ، وفي كتب الادب والتاريخ كثير من الابيات والامثال والمأثورات . وقد نجد من ذلك أسطراً متوالية

وخير ما يفعل لمقارنة النثر العربي والنثر الفارسي ان ننظر الى كتاب عربي وترجمته ، لنرى كيف توافق الترجمة الاصل وكيف تخالفها مراعاة لاسلوب اللغة وذوق اهلها . فاذا قارن الباحث كتاب كليلة ودمنة العربي بالترجمة الفارسية التي كتبها نصر بن عبد الحميد والترجمة الاخرى التي كتبها الكاشفي من بعد وسماها أنوار سهيلي عرف كيف تشترك اللغتان في كثير من الالفاظ والعبارات وضروب البديع وكيف تختلفان في الاطناب والتفصيل والمبالغة

مقام العربية في ايران من الفارسية

قد عرفنا حال اللغة الفارسية في ايران اجمالاً ، كيف بدأت وكيف تطوّرت وكيف شاركت في فنون كثيرة . وقد يتردد في نفس القارىء هذا السؤال : ما ذا أصاب اللغة العربية في هذه البلاد بعد ان صار لها لغة أدبية خاصة ؟ هل استبدت اللغة الفارسية بالآداب والعلوم ولم يبق للعربية فيها مجال ؟

قد تغلبت الغير باللغتين ولكن يمكن ان يقال ان العربية احتفظت بالسيادة في الاطوار كلها فيما عدا الشعر . فأما بيان هذا ففي هذه الكلمة الموجزة :

لا ريب ان المؤلفات العربية التي ألفت في بلاد الفرس ما بين أول القرن الرابع وغارات التتار أكثر جداً من نظائرها الفارسية ، ولكن ينبغي ان نفرق بين النثر والشعر وغيره فان الامر فيها لا يجري على سنن واحد

فأما العلماء المؤلفون فلا حرج على باحث ان يقول انهم كلهم كانوا يعرفون اللغتين ، وقد كانت بعضهم فيها ولكن المؤلفين بالعربية أشهر ذكراً وأعظم أثراً . وحسبنا ان نذكر ابن مسكويه وابن سينا والبيروني والعتبي والغزالي والرازي والزوزني والتبريزي والنسفي والبيضاوي والسلمي

وأحسن مقياس في هذا ان نعمد الى جماعة ممن ألفوا باللسانين لنرى مؤلفاتهم العربية أكثر وأعظم أم الفارسية . ولا أحسب الامر يحتاج الى عناء . فيكفينا ان نذكر الغزالي الذي نعرف مؤلفاته العربية وليس له في الفارسية الا رسالتان : كيمياء السعادة ونصيحة الملوك .

وقد صرّح في الاول انهُ ألفها بالفارسية ليُفهم العامة — وفخر الدين الرازي لهُ زهاء ثمانين وثلاثين مؤلفاً يعزو منها في الفارسية واحد فقط هو اختيارات علائي . وناصر خسرو القبادياني على تأخر زمانه لهُ نحو خمسين مؤلفاً قليل منها الفارسي ، والبيضاوي ألف تفسيره المشهور بمنع الفارسية الا كتاباً صغيراً أسماه نظام التواريخ

وأما الشعر وما يتصل به فلا ريب ان النبوغ كان لشعراء الفارسية ، فبين قسم شعروا بالعربية ببلاد الفرس كثير أمثال الفردوسي او الانوري أو العنصري ، وفيهم أكثر العلماء الذين اتخذوا العربية لغة علم كانوا ينظمون شعراً عربياً . وكثير من شعراء العرب نظموا شعراً عربياً كذلك . وحسبنا ان نعرف ان الثعالبي وهو من رجال القرن الرابع ذكر في الجزء الثالث والجزء الرابع من اليتيمة واحداً وخمسين ومائة من معاصريه الذين نظموا الشعر العربي في أرجاء بلاد الفرس . وهم أكثر من كل شعراء الفرس الذين ذكرهم عوفي في القرن السابع ولكنهم لا يبلغون درجتهم في الشعر . وقليل منهم يعدّ شاعراً عظيماً في العربية

ومن الشعراء الذين نظموا بالفتين بديع الزمان الهمذاني وابو الفتح البستي وقد ضاع ديوانه الفارسي . والبديع البلخي الذي مدح أحد الامراء بشعر ملمع . وعطاء بن يعقوب الكاتب . وكان لهُ ديوانان عربي وفارسي، والباخرزي ، وابن سينا والشيخ السعدي ومن الكتّاب رشيد الدين الوطواط صاحب حديقة الشعر ولهُ رسائل عربية نشرت احداها في رسائل البلغاء

ولم يكن حال الفتين سواء في العصور كلها فقد كانت الفارسية منذ ظهرت في صور بينما كانت العربية في هبوط — وهذا الهبوط كان أبين في الشعر منهُ في النثر ، فالرسائل التي مؤلفو راحة الصدور ينقل أبياتاً عربية بليغة لاحد وزراء السلاجقة ثم يأسف على ذلك الزمن ويقول : ان وزراء زمنه لا يفهمون مثل هذا — وصاحب المعجم من رجال القرن السابع يقول ان شعراء زمانه يعرفون الفتين ولكنهُ لما ألّف كتابه في العروض بالعربية لم يفهم عليه أحد فاضطر حتى قسم الكتاب قسمين المعجم والمعرب

وعوفي يقول : فان كل مستعرب يعرف الفارسية وليس كل شاعر فارسي يعرف العربية ومع هذا كلهُ نرى ان اللغة الفارسية نفسها لم تكن قد ضبطت قواعدها واحكمت كما ضبطت العربية حتى نجد شمس الدين الرازي في القرن السابع يشكو من هذا ويشرح القواعد شرح المستنبط الذي لم يُسبق

والخلاصة ان العربية فيما عدا الشعر حلت مكانة فوق الفارسية حتى عارضات الفنون عصفت بالحضارة الاسلامية واصبحت العلوم والآداب بشرقيات لم تفق منها حتى اليوم . ويضيق المجال عن الكلام في طور الفتين بعد سقوط بغداد . وعسى ان تتاح له فرصة اخرى ان شاء الله